رسالة الميلاد لنا اليوم

المسيح اليوم وُلِد في بيت لحم، أي دخل إلى العالم وحلَّ فيه؛ ولكن دخول المسيح إلى العالم لا يخص العالم، ولكن يخصّنا نحن؛ وحلوله في العالم لا يخص العالم، ولكن يخصُّنا نحن – بمعنى أن المسيح في الحقيقة دخل العالم وحلَّ فيه، ليدخل في الإنسان ويحلَّ فيه. هذه كانت رسالة المسيح التي استُعلِنَتْ بالتجسُّد.

ولَمَّا وُلِد المسيح: «ظَهَرَ بغتةً مع الملاك جمهورٌ من الجُند السماوي مُسبِّحين الله وقائلين: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرَّة.» (لو ٢:١٣و١٤)

وهذه كانت رسالة الميلاد للإنسان، لأن الملاك يقول: ''وُلِدَ **لكم** اليوم''. فلأول مرَّة منذ آدم يولَد لنا إنسانٌ، فيكون ميلاده رسالة ناطقة فينا بمجد الله في الأعالي، والسلام على الأرض، والمسرة في الناس؛ سلام إلهي ومسرة وفرح إلهيان، وليس من الأرض للأرض:

+ «سلاماً أترك لكم. **سلامي** أُعطيكم. ليس كما يُعطي العالم أُعطيكم أنا» (يو ١٤:٢٧).

+ «كلَّمْتُكم بهذا لكي يثبت **فرحي** فيكم ويكْمَل فرحكم» (يو

.(١١:١٥

+ «أتكلَّم بهذا في العالم ليكون لهم **فرحي** كاملاً فيهم» (يو ١٣:١٧).

فالذي يمجِّد الله هو المسيح الذي حلَّ فينا وهو وحده الذي يمجِّد الله، لأنه أبوه، وهو مجد الله بذاته. والذي أشاع السرور والمسرَّة فينا هو المسيح الذي حلَّ فينا. فهو سلام إلهي وسرور إلهي من السماء للإنسان.

صحيحٌ أن مكان ميلاد المسيح تاريخياً كان في مذود طين، أمَّا روحياً فالمسيح يستحيل أن يحلَّ بملء لاهوته إلاَّ في الإنسان. هذه رسالته التي نزل من السماء من أجلها، الأمر الذي استُعلِن بالكامل بعد القيامة من بين الأموات، حيث اعتُبِرَت أنها رسالة المسيح وقمة اللاهوت: «أنتم فيَّ وأنا فيكم» (يو ١٤:٢٠). وقد جعلها بولس الرسول أقوى ما يُسلِّمه لنا بصلاة وتوسُّل إذ يقول في رسالة أفسس:

+ «أُحني رُكبتيَّ لدى أبي ربنا يسوع المسيح، الذي منه تُسمَّى كل عشيرة في السموات وعلى الأرض. لكي يُعطيكم بحسب غِنَى مجده، أن تتأيَّدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن (الإنسان الجديد)، **ليَحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم**...» (أف ٣:١٤-١٧).

وعلى ضوء الميلاد، فما قيمة أن يحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبنا؟

قيمته هو أنه سيكون المصدر الحقيقي الذي يعطي المجد لله في السماء، لأن المسيح نفسه هو مجد الله والينبوع الإلهي الذي يفيض سلاماً من الله ومسرَّة؛ الأمر الذي انقطع من قلوبنا، إذ كانت العداوة مُستَحكَمَة بيننا

وبين الله؛ الأمر الذي كان سرَّ شقائنا. لأن الإنسان من نفسه كان لا يعرف ولا يستطيع ولا يفهم، كيف يُعطي مجداً لله! والسلام والمسرَّة لا تخرج من الإنسان نحو الله والإلهيات، وإن خرجتْ تكون بالكلام. لكن المسيح هو وحده رئيس السلام أي صاحبه، والوحيد الذي يعطيه «سلامي أُعطيكم» (يو ١٤:٢٧)، وسلامه هو سلام إلهي يدوم. والمسرَّة التي يعطيها تفيض بالروح تسبيحاً وشكراً يدوم، لا يقدر العالم أن ينزعه منَّا. هكذا إن حلَّ المسيح في قلوبنا، فحياتنا تكون مجداً لله ورسالة سلام روحي ومسرَّة روحية بين الناس.

وليس وحده السلام أو المسرَّة الذي يدخل قلوبنا بحلول المسيح ويفيض؛ بل برُّ الله، لأن المسيح وحده هو البار وهو الذي يبرِّر الكثيرين ببرِّه. فإذا لم يحلَّ المسيح بالإيمان في القلب، يمتنع أن يكون للإنسان برٌّ. والبر هو التزكية المطلقة من الله، ومَنْ ذا يتزكَّى أمامه!؟ لذلك أصبح المسيح هو برَّنا الذي نحيا به أمام الله أبيه ونتزكَّى! وليس البر فقط، بل القداسة: «ولأجلهم أُقدِّس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مُقدَّسين في الحق» (يو ١٧:١٩).

بل ليس البر والقداسة هما فقط اللذان يسكنان في قلوبنا بحلول المسيح، بل المحبة؛ حيث المحبة في جوهرها هي الله، فالله محبة. أما الإنسان، فمحبته إما غاشَّة أو ناقصة. لأن اختبار المحبة أن يموت الإنسان من أجل عدو أو خاطئ، هذا لا يقواه إلاَّ المسيح، فليس حبٌّ أعظم من حبِّه: «ليس لأحدٍ حُبٌّ أعظم من هذا أنْ يضع أحدٌ نفسه لأجل أحبائه» (يو ١٥:١٣)، «عرَّفْتُهم اسمك وسأُعرِّفهم، ليكون فيهم الحب الذي

أحببتني به» (يو ١٧:٢٦). والصليب يشهد على ذلك. فإن لم يحلَّ المسيح في القلب، فمن أين تأتينا المحبة الحقيقية الصادقة التي تفدي. وحبٌّ بلا فِدْية لا يشهد لله ولا يُمجِّده. فإنْ غاب المسيح من القلب، استيقظتْ الأحقاد وملكت العداوات، وساد الخصام والتحزُّب والانقسام.

وكالحب كذلك البُنوَّة. من أين وكيف ولماذا نُدعى أولاد الله إنْ لم يحلَّ المسيح في قلوبنا،

ويقود حياتنا، ويعطينا طاعة البنين ومحبتهم للآب!؟ وكذلك أيضاً إنْ لم يسكن روح المسيح في قلوبنا الذي هو وحده القادر أن يدعو الله أَباً، أي أن نقول لله: أبانا الذي في السموات، عِوَض آباء الأرض؟ فروح المسيح، كما يقول القديس بولس، يصرخ إلى الله أو يُنادي لله في قلوبنا بنداء «أَبـًّا»، التي لا يقولها إلاَّ الأطفال وهم في حضن أبيهم. والذي ليس له روح المسيح، فالمسيح ليس له، أي يكون غائباً. وروح المسيح هو وحده الذي يُعطينا نعمة الفهم والإفراز كبنين لله، التي بدونها يصعب علينا الطريق، وخاصة الرهبان.

وفوق كل عطايا غِنَى الآب للذين قبلوا المسيح وقَبِلَهم المسيح لكي يحيا فيهم: عطية "الإيمان"،

فالإيمان هو عطية الله العظمى، التي تفتح قلوبنا وعقولنا على الله فنؤمن بالله الآب والمسيح الابن والروح القدس، ليس من أنفسنا وعقولنا وكلامنا، بل من ذخيرة "**إيمان الله**"، كما هو الساكن في قلوبنا والناطق فينا بالروح. فيصبح الإيمان بالله والمسيح من واقع سُكنَ الآب والابن والروح القدس، ويصبح الإيمان قادراً فعلاً أن يهزَّ السماء وينقل الجبال

ويؤهِّلنا لحياة الشركة مع الله والمسيح، التي يتكلَّم عنها يوحنا الرسول كواقعٍ حيٍّ نعيشه في حياتنا الجديدة بإنساننا الجديد ببصيرة مفتوحة.

بهذا، وبهذا فقط، نستطيع أن نقول مع القديس بولس: «فأحيا لا أنا، بل **المسيح يحيا فيَّ**. فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، **إيمان ابن الله**، الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل ٢:٢٠). هذه هي الحياة الجديدة المسيحية التي تعني حياة المسيح فينا، والتي فيها نحيا ونتحرك ونوجد بروح الله الساكن فينا، والذي بهذا الروح فقط نستطيع أن نقول مع بولس الرسول: «**مَنْ سيفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدَّة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع، أم عُرْي أم خطر أم سيف؟**» (رو ٨:٣٥).

هذه كلها أصبحت مواريث الإنسان بحلول المسيح فينا وحصولنا على ميراثه بالكامل:

«فإنْ كُنَّا أولادًا فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله ووارثون مع المسيح» (رو ٨:١٧). ومن ضمن هذا الميراث العجيب الفاخر، أن نرث في موته، ونرث قيامته، ونحيا بحياته، ونجلس في السماء معه وعن يمينه.

- هذه كلها محصِّلات ميلاد المسيح اليوم في بيت لحم، وحلوله في العالم، وبالتالي في الإنسان.

- فالآن، إن كانت هذه كلها مواريث الإنسان بحلول المسيح في القلب، يصبح حلول المسيح في القلب هو حياتنا، هو خلاصنا، هو برُّنا، هو سلامنا ومسرَّتنا وحبُّنا، هو حصولنا على حقِّ البنوَّة لله، هو غلبة العالم وهذا الدهر.

فلما رأى بولس الرسول هذا الحلول الذي اختبره وعاشه، أخذ يحثُّنا على هذا بصلاة حارة فيقول: «أحني رُكبتيَّ لدى أبي ربنا يسوع المسيح لكي يعطيكم بحسب غِنَى مجده، أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن، ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم...» (أف ٣:١٤- ١٧)

إذن، فكل هذه المواريث متعلِّقة بالإيمان المسنود والمؤيَّد بالقوة بالروح في الإنسان الباطن. إذن، فتكون **علَّة عدم حصولنا على حلول المسيح في القلب في الإنسان الباطن؛ هي عدم فاعلية الإيمان** بسبب عدم تأييده بالقوة بالروح، الذي تكون نتيجته الحتمية غياب الشركة في هذه المواريث المجانية.

فالمسألة أصبحت أخطر ما يواجهنا في حياتنا المسيحية، وخاصة نحن الرهبان. فإنْ كان المسيح لم يحل بالإيمان في القلب، تكون حياتنا المسيحية على هامش الحق، يعوزها البرهان الوحيد وهو حلول المسيح فينا. **فما العمل؟**

هنا جهاد الإيمان يتصدَّر كل اهتماماتنا ويكون شاغلنا الوحيد،

حيث يقوم الجهاد على أساس المطالبة بحقنا في هذه المواريث، لأننا تسجَّلنا أولادًا لله باعترافنا بصليب المسيح وقيامته.

وتكون المسألة مسألة صراع مع الله كصراع يعقوب طول الليل حتى الفجر حينما كان أساس طلبه هو المطالبة بـ ''البركة''، التي هي ميراث آبائه إبراهيم وإسحق. أما صراعنا نحن، فهو المطالبة بـ ''حقوق المسيح وميراثه'' في كل المواعيد العظمى والثمينة التي يستحيل أن ننالها إنْ لم

يحل المسيح في القلب بالإيمان المؤيَّد بالقوة بالروح. فنحن نقف أمام الله الآب الغني في المجد نُطالِب أن يُعطينا بحسب غِنَى مجده هذه العطية المجانية التي صرَّح الإنجيل ومن فم المسيح أنه على استعداد أن يُعطيها: «يُعطي الروح القدس للذين يسألونه.» (لو ١١:١٣).

- لذلك أُنادي في هذا العيد المقدَّس: عيد حلول المسيح في العالم، أن نُصارِع صراع يعقوب حتى الفجر من أجل أن ننال هذه الحقوق والمواريث بحلول المسيح فينا بالإيمان المُقوَّى بالروح. وصراعنا هذا مؤيَّد بتشجيع المسيح لنا على السهر حتى نصف الليل، حتى الفجر، بانتظار مجيء المسيح. ولكن نحن ننتظر هذا المجيء في القلب بالروح، نُصارِع مع مَنْ هو غني في المجد، فنحن لا نُصارِع صراع مَنْ يشحذ، ولا مِمَّن هو شحيح. لذلك ننتظر العطية برجاء مسنود بالمواعيد.

أما ما هو قياس هذا الصراع؟

فهذا يحدِّده ضخامة المطلوب بعلوِّه وعمقه، بطوله وعرضه. فَعَلَى قدْر ما نطلب ونرجو، نسهر ونصلِّي. أما كيف يكون السهر والصلاة؟ فهنا يُحيلنا المسيح إلى جثسيماني لنرى بأعيننا ونُدرك بقلوبنا صلاة رئيس إيماننا ورئيس خلاصنا، بسجود وانبطاح إلى التراب، وبدموع وصراخ شديد للآب ـ كما يقول سفر العبرانيين ـ وبعرق يتصبَّب من جبينه كقطرات دم؛ لكي يحصل لنا على هذه المكتسبات والمواريث والمواعيد العظمى والثمينة التي نطلبها من الآب ونرجوها. فحينما يقول المسيح: ''اسهروا وصلُّوا''، فقد أعطانا نموذج السهر والصلاة، بل الصراع

المرير. ولِمَنْ كان يُصلِّي؟ كان يُصلِّي لله أبيه!!

- وحتى لا تستغربوا هذا المنهج، إليكم تعليم أب رهبنتنا القديس أنطونيوس، إذ يقول:

[ذلك الروح الناري العظيم الذي قبلته أنا، اقبلوه أنتم أيضاً. وإذا أردتم أن تقبلوه ويسكن فيكم، قدِّموا أولاً أتعاب الجسد وتواضع القلب، وارفعوا أفكاركم إلى السماء في الليل والنهار، واطلبوا باستقامة قلب هذا الروح الناري، وحينئذ يُعطى لكم. ولا تُفكِّروا في قلوبكم وتكونوا ذوي قلبين وتقولوا مَنْ يقدر أن يقبل هذا. لا، يا أولادي، لا تَدَعوا هذه الأفكار تأتي على قلوبكم، بل اطلبوا باستقامة قلب وأنتم تقبلونه. وأنا أبوكم، أجتهد معكم، وأطلب لأجلكم (مثلما فعل القديس بولس وأَحنى ركبتيه وطلب من الله الآب من أجلنا) أن تقبلوه، لأني عارفٌ أنكم كاملون وقادرون على قبوله. لأن كل مَنْ يُفلِّح ذاته بهذه الفلاحة (النسك الإنجيلي)، فإنَّ الروح يُعطَى له في كل جيل وإلى الأبد ... أديموا الطلبة باجتهاد من كل قلوبكم.] (الرسالة الثامنة)

فإن كان المسيح قد دفع ثمن خلاصنا وميراثنا بالتجسُّد وحلوله في العالم وفي الجسد، فقد أكمل دَفْع الثمن في جثسيماني بحزنٍ حتى الموت. وهكذا لن يكمل عيدنا في الميلاد اليوم إلاَّ بزيارة إلى جثسيماني، لنُدرِك ماذا دفع المسيح ثمناً لحلوله في الإنسان وإعطائه حق حياته وميراثه!

فإنْ كنَّا نُصارِع، فنحن نشترك مع المسيح في سهره وصلاته وسجوده ودموعه وصراخه الشديد إلى الآب، وعلى مرأى من الآب الغني في المجد والسخيِّ في العطاء، الواقف وفي يده الأكاليل، أكاليل الغلبة والخلاص. لأننا إنما نُصارِع لحسابه لننال من يده إكليل التبنِّي ومعه كل حقوق البنين والميراث. وبالأَوْلَى من أجل تأييد منه بالقوة بالروح في الإنسان الباطن ليحلَّ المسيح في قلوبنا، لأن بحلوله يتم إعطاء الأكاليل.

فإن حلَّ المسيح في القلب، فالحياة تحل معه والروح، ويكون قد انفتح علينا طريق الحق والحياة، فلا نعود نُعْوِز مَنْ يرشدنا الطريق ولا مَنْ يُعرِّفنا الله والحياة أو مَنْ يَهَبَنا الروح؛ إذ يتم لنا ما يقوله إرميا النبي في مواهب العهد الجديد:

+ «أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً. ولا يُعَلِّمون بعد كل واحدٍ صاحبه وكل واحدٍ أخاه قائلين: اعرفوا الرب، لأنهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم، يقول الرب. لأني أصفح عن إثمهم، ولا أذكر خطيَّتهم بعد.» (إر ٣١:٣٣و٣٤)

أو كما يستعلنها بولس الرسول:

+ «ظاهرين أنكم رسالة المسيح، مخدومة منَّا، مكتوبة لا بحبر بل بروح الله الحيِّ، لا في ألواح حجرية بل في ألواح قلب لحمية... ليس أننا كُفاةٌ من أنفسنا أن نفتكر شيئاً كأنه من أنفسنا، بل كفايتنا من الله.» (٢كو ٣:٣،٥)

فالذي يكون المسيح قد حلَّ في قلبه بالروح، فقد خَلَصَ وهو قادرٌ أن يُخلِّص كثيرين. فالخلاص ليس فكراً ولا قولاً ولا حرفاً أو ترديد آيات محفوظة؛ بل هو المخلِّص قد حلَّ في القلب، يصنع لنا الخلاص بروحه وحياته. والمنقادون بروح الله هم أولاد الله.

• هذه هي معطيات يوم الميلاد لنا اليوم!

• لأنه معروف أنه "لَّما دخل البكر إلى العالم"، اتَّخذ من جسدنا هيكلاً أرضياً له، وقد حلَّ فيه بكل ملئه الإلهي، فكُنَّا فيه (بالطبيعة البشرية التي أخذها منا)، وهو فينا: «فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً» (كو ٢:٩). ولكنه عاد فنقض هذا الجسد على الصليب والقبر ليتخلَّص مِمَّا فيه من خطايا، وبعد ثلاثة أيام قام به هيكلاً روحانياً تمَّ خلاصه ليحيا فيه، ونحن أيضاً نحيا فيه بذات الملء الإلهي مع الآب والابن والروح القدس. لأنه حيث يحل المسيح يحل الملء الإلهي: «إن أحبني أحدٌ يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً» (يو ١٤:٢٣).

وهكذا، فالمسيح بقدر ما كان فينا، كُنَّا فيه؛ سواء لَّما حلَّ في الجسد على الأرض أو لَّما قام به وصار في السماء، ليتم القول الذي قاله القديس يوحنا الرسول من فم المسيح: «أنتم فيَّ وأنا فيكم» (يو ١٤:٢٠)، وانتهى بالقول لأبيه:

+ «**كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا... وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً**

كما أننا نحن واحد. أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مُكمَّلين إلى واحد.» (يو ١٧: ٢١-٢٣)

هذا هو قمة اللاهوت والخلاص، وغاية الإيمان، وتاج المسيحية، ومنتهى غاية الإنسان.

ثم أليس هذا عينه هو سرُّ كل **ملء الله** الذي بدأنا به آية بولس الرسول الذي استُعلِن له كل ما أعلنه المسيح للقديس يوحنا؟

+ «أحني رُكبتيَّ لدى أبي ربنا يسوع المسيح، الذي منه تُسمَّى كل عشيرة في السموات وعلى الأرض. لكي يُعطيكم بحسب غِنَى مجده، أن تتأيَّدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن (الإنسان الجديد)، **ليحلَّ المسيح بالإيمان** في قلوبكم، وأنتم مُتأصِّلون ومُتأسِّسون في المحبة، حتى تستطيعوا أن تُدْرِكوا مع جميع القديسين، ما هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، **لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله**. والقادر أن يفعل كل شيء، أكثر جداً مِمَّا نطلب أو نفتكر، بحسب القوة (الروح) التي تعمل فينا، له المجد في الكنيسة في المسيح يسوع إلى جميع أجيال دهر الدهور. آمين» (أف ٣: ١٤-٢١).

• وليتكم تعلمون، أيها الآباء والإخوة، أن حلول الروح القدس يوم الخمسين قد وفَّر في تعليمنا وتهذيبنا بالروح ما تعلَّمه شعب إسرائيل في ألفي سنة و لم يتعلَّم. هكذا حلول المسيح والروح القدس في الإنسان الجديد ليس فقط قد وهب الإنسان تعليم الحق وكل شيء،

كما قال المسيح أنَّ «روح الحق... يُرشدكم إلى جميع الحق» (يـــو ١٦:١٢)؛ بل أهَّله لدخول ملكوت الله!

- وليت هذه العظة تكون منهجاً روحانياً، يفتتح به المسيحي حياتـــه، ويختم به حياته. والمجد لله. آمين.

(السابع من شهر يناير من بدء الألفية الثالثة لميلاد المخلِّص)